

نحـو عـلم اجتمـاع تنـويـري
Towards an enlightened sociology
الدراسـات والأبحـاث الإنسانية والسوسيولوجية

انثروبولوجيا الإبداع كفعل اجتماعي المهندسة المعمارية زَها حديد نموذجًا

(دراسة في ديناميكيات الابتكار الثقافي)

حسـام الـدين فـياض

باحث وأكاديمي سوري

• مقالات في العلوم الإنسانية والاجتماعية
• حسام الدين فياض
• الانثروبولوجيا الثقافية / انثروبولوجيا الإبداع
• انثروبولوجيا الإبداع كفعل اجتماعي المهندســـة المعمارية زَها حديد نموذجاً (دراسة في ديناميكيات الابتكار الثقافي)
• نحو علم اجتماع تنويري للدراســـات والأبحاث الإنســـانية والسوسيولوجية
• مقال إلكتروني
• المجلد: 03 / العدد: 025
• ماردين 05 مايو – أيار 2025

• Articles in the Humanities and Social Sciences
• Hossam Aldin Fayad
• Cultural Anthropology / Anthropology of Creativity
• Anthropology of Creativity as a Social Act: Architect Zaha Hadid as a Model (A Study of the Dynamics of Cultural Innovation)
• Towards an Enlightened Sociology for Humanities and Sociological Studies and Research
• Electronic Article
• Volume: 03 / Issue: 025
• Mardin, May 5 2025

انثروبولوجيا الإبداع كفعل اجتماعي المهندسة المعمارية زَها حديد نموذجاً

(دراسة في ديناميكيات الابتكار الثقافي)

Anthropology of Creativity as a Social Act: Architect Zaha Hadid as a Model

(A Study in the Dynamics of Cultural Innovation)

" لا يمكنك **استهلاك الإبداع**. كلما استخدمته أكثر، **زاد ما لديك** " **(مايا أنجيلو، شاعرة وكاتبة أمريكية)**

يربط " **ألبرت أينشتاين** " **الإبداع بالمتعة والذكاء** قائلاً: " **الإبداع هو ذكاء الاستمتاع** "، مما يشير إلى أن **الدافع الداخلي والشغف بالعمل** قد يكونان جزءاً أساسياً من **العملية الإبداعية**.

" **العبقرية** دالة على التغير، **والتغير اشتياق** وتطلع إلى عالم جديد " **(صمويل بتلر، كاتب وروائي من المملكة المتحدة)**.

" يُعد **الإبداع حجر الزاوية الأساسية في التطور والتقدم البشري والتميز الحضاري**، فهو القدرة على توليد أفكار أو حلول جديدة وقيمة. يتجلى الإبداع في شتى المجالات، **من الفنون والعلوم إلى الأعمال التجارية والتنمية الشخصية**، مما يجعله محط اهتمام المفكرين والباحثين على مر العصور. كما تتعدد أوجه الإبداع وتختلف تعريفاته **باختلاف السياقات والتخصصات**، إلا أن جوهره يكمن في **الخروج عن المألوف وتقديم ما هو**

أصـــيل ومبتكر. إن **فهم طبيعة الإبداع ومحفزاته وعلاقته بمختلف جوانب الحياة يمثل أهمية قصوى للأفراد والمجتمعات الطامحة إلى النمو والازدهار** ". **(الكاتب)**

لا يحدث **الإبداع من فراغ.** فعندما **ندرس الشـــخص المبدع أو المنتج الإبداعي أو العملية الإبداعية** فإننا غالباً ما نتجاهل **الوسـط الثقافي والبيئي**، أي إننا ننزع الإبداع من سياقه، غير أن **الثقافة حاضرة دوماً فالعلاقة التي تربط بين ثقافة المبدع وإبداعه علاقة متينة**، فقد قيل قديماً **أن المبدع ابن بيئته**، بمعنى أن **ذات المبدع هي مرأة كاشفة تنبثق منها كل محددات هويته**، وتتحول إلى رســالة جمالية إبداعية تنقل عمق شـــخصـــيته وجوهرها، **وكلما كان المبدع صــادقاً في عمله، صــافياً في إبداعه، كلما ظهر ذلك جليّاً في أعماله.**

تمثل **انثروبولوجيا الإبداع** ميداناً بحثياً **حديثاً نسبياً** ضمن العلوم الاجتماعية، إذ تسعى إلى **فهم الإبداع الإنساني بوصفه ظاهرة ثقافية واجتماعية** لا تقتصر على الأبعاد الفردية والنفســية فقط. وبينما ركزّت دراســات الإبداع التقليدية على العبقرية الفردية أو الســمات النفســـية، فإن **الانثروبولوجيا تُعيد تعريف الإبداع في ضــــوء الســــياقات الثقافية والاجتماعيـة**، مركزةً على كيفيـة تشــــكيـل المجتمعـات **للابتكـار الفني، والتكنولوجي، والمعرفي.**

بذلك **يهدف هذا المقال** إلى تقديم **محاولة تأصـــيلية لانثروبولوجيا الإبداع**، من خلال تحديد المفاهيم الأســاســية، واســتعراض النظريات المفســرة، ورصــد أهم مجالات الاهتمام البحثي، وصـــولاً إلى إبراز الأطر النظرية والمنهجية التي تشـــكل هذا الحقل المعرفي المتداخل، **بالإضـافة إلى طرح نموذج تطبيقي عن دراسـة حالة إبداعية في العالم**، حيث وقع الاختيار على المهندسة المعمارية العالمية " **زَها حديد** ".

تُعرّف **الانثروبولوجيا** باختصـــار شـــديد علم دراســـة الإنســـان في أبعاده **البيولوجية، الثقافية، الاجتماعية، واللغوية.** أما **الإبداع** فهو عملية توليد أفكار أو منتجات جديدة وملائمة ثقافياً ضـــمن ســـياق اجتماعي معين. بذلك يمكننا تعريف **انثروبولوجيا الإبداع** بأنها فرع من **الانثروبولوجيا الثقافية** تدرس الإبداع باعتباره ظاهرة اجتماعية وثقافية، محللةً الأطر التي تنتجه وتدعمه أو تكبحه داخل الجماعات البشـــرية. كما تُعنى انثروبولوجيا الإبداع بكيفية فهم المجتمعات لمفهوم " **الجِدَّة** " و" **الأصـــالة** "، وكيفية تفاعل الأفراد والجماعات مع الأفكار أو الابتكارات الجديدة، ضمن شروطهم الثقافية والمعرفية.

ســيكولوجياً، يُنظر إلى الإبداع **بوصـفه حالة نفسـية** تنبع من تفاعل معقد بين **الإدراك، الانفعال، والدافعية.** فالإبداع لا يُختزل في مجرد إنتاج شـــيء جديد، بل يعكس اســـتعداداً داخلياً للفرد على التفكير خارج النماذج المألوفة، والقدرة على التفاعل الحي مع المحيط الثقافي والاجتماعي. وتؤكد **الدراســـات النفســـية** أن العمليات الإبداعية غالباً ما ترتبط بحالات وجدانية مثل **التأمل، القلق الإيجابي، التوتر المنتج، أو حتى الحزن العميق،** حيث يُســـتثمر هذا الانفعال في تحويل التجربة الذاتية إلى مخرجات ذات طابع جمالي أو فكري. وبهذا المعنى، فإن الإبداع لا يفهم فقط على أنه مهارة عقلية، **بل هو تجربة وجدانية ومعرفية تترجم من خلال الفرد إلى ســـلوك تعبيري يتجاوز حدود العقلانية الصارمة ليُلامس مناطق اللاوعي والحدس والتخيل.**

كما لا يُمكن فهم الإبداع بمعزل عن **الســياق الاجتماعي والثقافي** الذي ينشـأ فيه، فهو ليس فقط تعبيراً عن قدرات فردية، بل هو نتاج اجتماعي يجسّد تفاعلات الفرد مع محيطه. فالإبداع يتشكل داخل منظومات القيم والمعايير والتجارب الجمعية، ويعد استجابة لتحديات الواقع الاجتماعي أو نقداً له أو إعادة تشكيله. كما أن طبيعة المشكلات التي يسعى الإبداع

إلى معالجتها، والوسـائل التي يسـتخدم فيها، وحتى مدى قبوله وتقديره، كلها تتحدد وفقاً للبنى الاجتماعية السـائدة. بهذا المعنى، فإن **الإبداع هو فعل ثقافي جماعي**، يعكس شـروط الإنتاج **التاريخي والاقتصـادي والسـياسـي** التي تؤطر المجتمع، وهو تعبير عن **الوعي الجمعي بقدر ما هو تجلٍ لرؤية فردية.**

بناءً على ما سـبق يمكننا تعريف **الإبداع** بأنه " الوحدة المتكاملة لمجموعة العوامل الذاتية والموضوعية التي تقود إلى تحقيق إنتاج جديد، وأصيل وذي قيمة من قبل الفرد أو الجماعة " أو أنه " النشاط أو العملية التي تقود إلى إنتاج يتصف بالجدة والأصالة والقيمة من أجل المجتمع ". وأما **الإبداع بمعناه العام الواسـع** فهو " إيجاد حلول جديدة للأفكار والمشكلات والمناهج... ويرى بعض الباحثين أن التفكير المبدع شكل راقٍ للسلوك يظهر في حل المشـكلات، ويرون أن حل المشـكلات يعد إبداعاً إذا ما حقق توافقاً مع واحد أو أكثر من الشروط الآتية:

1- أن يمثل إنتاج التفكير جِدة وقيمة (سواء بالنسبة للفرد أو للثقافة).
2- التفكير اللا اتفاقي، أي التفكير الذي يغير الأفكار المقبولة مسبقاً أو بنفيها.
3- التفكير الذي يتضـمن الدافعية أو المثابرة والاستمرارية العالية التي تظهر على مسار العمل بشكل متقطع أو مستمر، والذي تكمن فيه القدرة العالية لتحقيق أمر ما.
4- تكوين مشـكلة ما تكويناً جديداً. ذلك أن النشـاط الإبداعي يظهر كجملة خاصـة من النشاط في حل المشكلة المتسمة بالجدة واللا اتفاقية في تكوين المشكلة تكويناً جديداً.

وهكذا تنوعت **آراء المفكرين حول تحديد مفهوم الإبداع**، حيث سـعى كل منهم إلى التقاط الجانب الأهم في هذه العملية المعقدة. ويلاحظ أن هناك اتفاق على أن الإبداع ينطوي على رؤية الأشـياء بطريقة مختلفة، كما ورد في المقولة الشـائعة: " **الإبداع، هو**

النظر الى المـألوف بطريقـة غير مـألوفـة ". وهـذه العبـارة تؤكـد على أهميـة تحـدي الافتراضــات واســتكشــاف وجهات نظر جديدة في التجارب اليومية. وأن " **القدرة على ربط الأمور بطريقة غريبة هي محور الإبداع الذهني بغض النظر عن المجال** ". وهذا يشــير إلى أن الإبداع يتضمن إقامة روابط بين عناصر قد تبدو غير متصلة للوهلة الأولى.

في واقع الأمر، يمثل الإبداع **حاجة معرفية مجتمعية ملحّة**، إذ يســـهم في تجديد أنماط التفكير والإنتاج والمعنى داخل المجتمع، ويعكس سعي الجماعة البشرية إلى تجاوز الأطر المعرفية التقليدية في مواجهة التغيرات المتســـارعة. فالمجتمعات، لا تتطور من دون مســـارات إبداعية تفتح أفقاً جديداً للفهم والتأويل، ســـواء في العلم أو الفن أو التنظيم الاجتماعي. ويتم **خلق الفعل الإبداعي** لدى الأفراد من خلال تفاعلهم مع بيئات محفزة على التســاؤل والنقد والتجريب، وهي بيئات **تشــجع على الانفتاح المعرفي وتقدير التنوع الفكري، وتقلل من سلطة الامتثال والقولبة. فكلما زادت قدرة المجتمع على إتاحة المجال للتعبير الحر وتقدير المختلف، زادت إمكانيات نشــوء الفعل الإبداعي بوصــفه ممارســة معرفية تُعيد صـــياغة الواقع وتنتج بدائل ممكنة له.** فالإبداع والحفاظ عليه **هو ارتباط تبادلي بين الكائن الحي وبيئته، وبالنســبة لمعظم البشــر فالبيئة هي الثقافة التي تقدم مصــفوفة ومحتوى للإبداع**، وفي الواقع هي **ســياق كل ســلوك إبداعي**، **تشــجع الثقافة الإبداع إلى الحد الذي يوفر للفرد الفرصـــة لتجربة العديد من جوانب الإبداع**، وتحديد وسائل مناسبة للتعبير الإبداعي.

كما يرتبط الإبداع ارتباطاً جوهرياً بحرية **التعبير عن الذات**، فهو يســمح للفرد بأن يستكشف هويته ويعبر عن تجربته الشخصية دون قيود مفروضة من قبل **البنى الثقافية والاجتماعية**. وتشـــير الأبحاث إلى أن **الممارســـات الإبداعية تعزز شـــعور الأفراد**

بالاستقلالية، حيث يمكنهم الخضوع لعمليات توليد الأفكار الإبداعية من تجاوز الحدود المعرفية والهيكلية التقليدية. كما ترتبط هذه الحرية بعوامل نفسية مثل **الثقة بالنفس وتقدير الذات**، إذ يساهم الإبداع في **بناء صورة إيجابية للذات** من خلال إتاحة المجال لاستكشاف الإمكانات الفردية والتعبير عنها بشكل فني أو فكري. هذا على المستوى **الفردي**. أما على المستوى **المجتمعي** نجد أن عملية الإبداع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحرية التعبير عن الرأي، **إذ تمكن هذه الحرية الأفراد من طرح أفكارهم ومواقفهم دون الخوف من الرقابة أو العقاب**، مما يشجع على استكشاف رؤى جديدة وتحدي الأفكار السائدة. فعندما تتاح **المساحة للقول الصريح والنقد البناء، تتحول المشاعر والانطباعات الشخصية إلى محركات للإبداع تفضي إلى إنتاج محتوى فكري وفني يعكس تنوع الخبرات والآراء داخل المجتمع.** كما يشير تقرير **منظمة اليونسكو** إلى أن حماية حرية التعبير تساهم في **إثراء التنوع الثقافي وتعزيز الابتكار، لأن التبادل الحر للأفكار يوفر بيئة حاضنة للإبداع الجماعي والفردي على حد سواء.**

وفيما يتعلق **بصفات وخصائص الإنسان المبدع** نجد أن الإنسان المبدع يتميز **بمجموعة من السمات والخصائص** منها **النفسية**، حيث تشمل الانفتاح على الخبرة الذي يعزز الدافعية الذاتية للانخراط في العمليات الإبداعية ويعتبر عاملاً وسيطاً بين الخصائص الشخصية والإنتاج الإبداعي، كما ترتبط قدرته على الابتكار بالمفعول الذاتي والثقة بالنفس التي تعزز الانخراط في الأنشطة الإبداعية والتحمس الدؤوب لتطوير أفكار جديدة. وتظهر الأبحاث أن **المرونة المعرفية تلعب دوراً جوهرياً** في إنتاج الحلول غير التقليدية من خلال القدرة على تبديل الأطر الذهنية واستيعاب وجهات نظر متعددة. فضلاً عن ذلك، يمتاز المبدعون **بملامح متضادة متوازنة، كالجمع بين العفوية والانضباط أو الخيال والواقعية، مما يدعم قدرتهم على توليد أفكار مبتكرة ومجدية عملياً.**

وعلى **الصـــعيد الثقافي**، يكوّن رأس المال الثقافي **(المتمثل في المعرفة والمهارات والرموز المتوارثة)** بيئة تغذي الإبداع عبر توفير قواعد معرفية غنية يمكن إعادة تركيبها بطرق جديدة، في حين تظهر دراسات مقارنة أن التنوع الثقافي يوسع نطاق الأفكار المولدة ويزيد احتمال نشـوء رؤى إبداعية فريدة. **اجتماعياً**، ينعكس الإبداع في شـبكات العلاقات التي توفر الدعم والتعاون، فقد لوحظ أن الأفراد المبدعين غالباً ما يعملون ضـمن شـبكات كثيفة تسـمح بتبادل المعرفة والخبرات، مما يعزز الإنتاجية الابتكارية. كما تسـهم **شـبكات الدعم الفني (التي تشمل الزملاء والموجهين والمساهمين)** في صقل المهارات الإبداعية وتمكين المشـاريع الفنية من النجاح. ويضـيف **المنظور الديناميكي للشـبكات الاجتماعية** أن التفاعلات المتكررة والمتنوعة داخل المجتمع تشكّل سياقاً يشـجع على المقاربة الجديدة للأفكار وينشـط دورة التجريب والابتكار المسـتمر. وأخيراً، **تتكامل هذه العوامل لتجعل من الإبداع نتاجاً متعدد الأبعاد يجمع بين الاسـتعدادات النفسـية، والثقافية الغنية، والبيئات الاجتماعية الداعمة التي تهيئ الظروف لظهور وإدامة الأفكار المبتكرة.**

بناءً على ما سـبق سـنحاول الاسـتعانة **بمجموعة من النظريات لفهم عملية الإبداع انثروبولوجياً** منها **النظرية البنائية الاجتماعية**، حيث طُوّرت هذه النظرية على يد **بيتر بيرغر وتوماس لوكمان** عام 1966، وهي تفترض أن الواقع الاجتماعي بما فيه الأفكار، القيم، والمفاهيم، يتم بناؤه من خلال التفاعل بين الأفراد داخل السـياقات الثقافية. ترتكز فكرتها الرئيسية بأن **الإبداع لا ينبع من عبقرية فردية معزولة، بل هو نتيجة التفاعل مع الإطارات الاجتماعية**، التي تحدد ما يعتبر " **جديداً** " أو " **مقبولاً** ". وتعتقد أن مفهوم التنشـئة الاجتماعية من أهم المفاهيم ذات الصـلة بعملية الإبداع على اعتبار أن ما يمكن اعتباره " **إبداعاً** " يتم تعلمه اجتماعياً من خلال عملية التنشـئة الاجتماعية. كما تعتبر عملية إعادة إنتاج المعنى من أهم المفاهيم المرتبطة بمفهوم الإبداع، فالأفراد المبدعون

ينتجون معاني جديدة عبر استجابتهم لتغيرات السياق الاجتماعي، وتم تطبيق هذه النظرية انثروبولوجياً من خلال دراسة **كيف تحدد مجتمعات السكان الأصليين في أستراليا أنماط الفن التقليدي المسموح بإبداعه وتعديله؟**

وفي ذات السياق ترى **نظرية الفعل الإبداعي** التي طورها **ألفريد غيل** عام 1998 ضمن عمله حول الفن والفاعلية، حيث رأى أن الإبداع عملية يعبّر فيها الأفراد عن قدراتهم الذاتية ضمن منظومات رمزية. فالإبداع هو فعل قصدي (***Agency***) يمارسه الأفراد رغم القيود الاجتماعية، لإحداث تغيير معنوي أو مادي. اعتمدت هذه النظرية على مجموعة أهم المفاهيم ذات الصلة بالإبداع منها الاستراتيجية الرمزية من خلال استخدام الرموز لإحداث معاني جديدة. والتحليل الثقافي الذي يهدف إلى تعديل الأنماط التقليدية لابتكار تعبيرات جديدة ضمن الموروثات الاجتماعية. وتم تطبيق هذه النظرية في تحليل **كيفية تجديد فنون الجداريات الحضرية في أمريكا اللاتينية كأدوات مقاومة ثقافية.**

أما فيما يتعلق **بنظرية النسبية الثقافية** في الإبداع المرتبطة أساساً بأعمال **فرانز بواس** وأتباعه الذين دافعوا عن أن **لكل ثقافة معاييرها الخاصة للحكم على الأفعال والمعاني.** وتذهب هذه النظرية أنه لا توجد **معايير عالمية لقياس الإبداع**، ما يُعتبر إبداعاً في ثقافة ما قد يُنظر إليه باعتباره خرقاً في ثقافة أخرى. وتؤمن هذه النظرية بالتنوع القيمي في فهم الإبداع ضمن أنظمته الرمزية المحلية، وعدم التمركز الثقافي أي تفادي قياس الإبداع بمعايير غربية أو معيارية. **وتم تطبيق هذه النظرية عملياً في دراسة كيفية ابتكار أشكال جديدة من الطقوس الدينية ضمن المجتمعات الإفريقية استجابة للضغوط الاقتصادية والسياسية.**

وتذهب **نظرية الشـبكات الفاعلة** في رؤيتها لعملية الإبداع، التي طورها كل من **برونو لاتور وميشـيل كالون** وغيرهم، إلى رفض الفصـل بين البشـر والأشـياء، معتبرةً أن كليهما يشـتركان في تكوين الواقع. فالإبداع حسـب رأيهم هو نتاج شـبكة معقدة من العلاقات بين البشر والعناصر المادية وغير البشرية (أدوات، تقنيات، مواد، ...إلخ).

وتعتمد هذه النظرية على مجموعة معينة من المفاهيم خلال تفسـيرها لعملية الإبداع منها **التحالفات الهجينة بين الفاعلين البشـريين وغير البشـريين**. والتفاوض الشـبكي من خلال إعادة ترتيب العناصـر داخل الشـبكة لإنتاج أنماط جديدة من الفعل أو التفكير. وتم تطبيق هذه النظرية في تحليل **كيف سـاعدت الهواتف المحمولة البسـيطة في الريف الإفريقي على ظهور أسـاليب جديدة للابتكار الاجتماعي مثل (التحويلات المالية عبر الهاتف).**

وأخيراً نظرية الأداء في تفسـير الإبداع وتنطلق من أعمال **إرفنج جوفمان** 1958 في " **عرض الذات في الحياة اليومية** "، ثم توسـعت لاحقاً مع **جوديث باتلر** في قضـايا الهوية. وتعتقد هذه النظريـة أن الإبداع يُمارس عبر الأداء الاجتماعي، أي عبر تمثيل الأدوار وإعادة تشكيلها باستمرار ضمن فضـاءات ثقافية معينة. فالابتكار الأدائي يوضـح لنا كيفية إنتاج هوية أو معنى جديد من خلال الأفعال المتكررة. بالإضـافة إلى تحولات المعنى عبر الأداء حيث يمكننا أن نفهم كيف يمكن أن تؤدي نفس الأفعال إلى معانٍ جديدة حسـب السـياق الاجتماعي الجديد. وتم تطبيق هذه النظرية **في دراسـة كيف يبتكر الشـباب الهويات الثقافية الجديدة عبر الرقص الحضـري أو المسـرح التفاعلي في البيئات الحضرية.**

ومن أهم **مجالات دراســة انثروبولوجيا الإبداع، الإبداع الفني والثقافي** حيث يعتبر **الفن** أحد أهم الميادين التي تتجلى فيها انثروبولوجيا الإبداع. إذ تسعى الانثروبولوجيا لفهم كيفية تعريف المجتمعات لمفهوم " **الفن** "، وكيفية إنتاجه وتلقيه وتأويله. لا يُنظر إلى العمل الفني كمنتج فردي فحســـب، بل كنتيجة تفاعلية مع منظومات الرمز والمعنى الجماعي. وتُحلل دراســـات الإبداع الفني كيف تضـــع المجتمعات معايير " **الجمال** " و" **الابتكار** "، وكيف تتغير هذه المعايير عبر الزمن. كما أن الدراســـات الحقلية تبحث كذلك في أدوار الفنانين ضـــمن أنظمتهم الاجتماعية من خلال الإجابة على التســاؤلات التالية: **هل يُنظر إليهم كقادة فكريين، أم كغرباء مبدعين، أم كجزء من الاقتصاد الثقافي؟**

ومن أهم مجالاتها أيضـــاً **الابتكار التكنولوجي والتحول المادي** حيث يرتبط الابتكار التقني بالإبداع الجماعي، **إذ تركز انثروبولوجيا الإبداع على كيفية اســـتجابة المجتمعات للاحتياجات اليومية عبر تطوير أدوات أو تقنيات جديدة.** بهذا لا يُدرس الابتكار باعتباره اختراعاً فردياً بل كنتيجة للتفاعل بين الإنســـان والبيئة والمواد. مثال ذلك: **دراســـة تطور أدوات الزراعة التقليدية في المجتمعات القروية باعتبارها ابتكارات اســـتجابة للتغيرات البيئية.** ويتم التركيز في هذا الســـياق على دراســـة الكيفية التي تنتقل بها التقنيات عبر الثقافات **(الانتقال الثقافي)**، وكيف يُعاد تفسيرها ضمن السياقات المحلية.

كما تسعى **انثروبولوجيا الإبداع** إلى **دراسة الأدب الشفوي والسرد الإبداعي** من خلال **عملية تحليل انثروبولوجيا الإبداع للأدب الشفهي والقصص والأساطير بوصفها أنماطاً من الإبداع الجمعي**. بالإضافة إلى توضيح كيف يُعيد الساردون الشعبيون خلق الحكايات لتناســـب التحولات الاجتماعية. بذلك تركّز الأبحاث في هذا الســـياق على آليات الإبداع ضمن القيود الثقافية مثل **التوفيق بين احترام التقاليد وضرورة تقديم أشكال تعبير جديدة.**

كما تحاول فهم كيفية **استخدام السرد لبناء الهوية الثقافية أو لإعادة صياغة الذاكرة الجمعية.**

وفي ظل مفهوم **العولمة الكونية** برز مجال آخر في دراسات انثروبولوجيا الإبداع يدعى **ريادة الأعمال والاقتصاد الإبداعي** خاصة في السياقات التي تربط الابتكار بالاقتصاد. حيث تدرس الانثروبولوجيا كيف يُعاد تعريف مفاهيم النجاح والابتكار في المشاريع الصغيرة والمبادرات المجتمعية. كما تركز البحوث على كيفية **دمج الممارسات التقليدية مع نماذج اقتصادية جديدة** مثل: **(السياحة الثقافية، أو الصناعات اليدوية المُطورة).** وتستكشف **كيف يُعزز الإبداع فرص التمكين الاجتماعي والاقتصادي، خصوصاً لدى الفئات المهمشة.**

وتعتقد الانثروبولوجيا **أن الإبداع عنصراً مركزياً في التحولات الاجتماعية والسياسية،** خاصةً خلال فترات الأزمات أو الثورات أو التغيير السياسي. كما تُدرس أشكال الإبداع في الحركات الاجتماعية على سبيل المثال **(الشعارات، والأغاني، والأشكال الجديدة للتنظيم الاجتماعي).** وتبحث أيضاً تلك الدراسات **كيف يستخدم الفاعلون الإبداع لتحدي الأنظمة القائمة أو لتخيل بدائل اجتماعية وثقافية، حيث يتم استخدام الفن الاحتجاجي أو الإعلام البديل كأدوات لإعادة تشكيل الفضاءات العامة.**

ومع تزايد **الهجرات والتواصل العالمي** ظهر **مجال الإبداع في التفاعل العابر للثقافات،** يدرس علماء الانثروبولوجيا الإبداع الناشئ عن تلاقح الثقافات المختلفة. وتركز البحوث في هذا المجال على كيفية ابتكار هويات هجينة وأشكال فنية جديدة نتيجة التفاعل بين أنماط ثقافية متباين، وتتم دراسة كيف تُستخدم عناصر ثقافية معينة بطرق مبتكرة تتجاوز المعاني الأصلية لها من خلال عملية **(التهجين الثقافي).**

وأخيراً تدرس الانثروبولوجيا **الإبداع في اللغة والتواصل**، حيث تحلل انثروبولوجيا الإبداع كذلك كيف يتم ابتكار تعبيرات لغوية جديدة مثال ذلك **(اللهجات الجديدة، أو المفردات المبتكرة)** كاستجابة للتغيرات الاجتماعية والثقافية. وتدرس **طرق ابتكار المعاني الجديدة، خاصةً في البيئات المتعددة اللغات أو في سياقات الإعلام الرقمي.**

- **دراسة حالة إبداعية (المهندسة المعمارية العالمية زَها حديد نموذجاً):** الإبداع **تجربة إنسانية** متعددة الأوجه تنطوي على التفاعل بين عوامل الموهبة الوراثية، والتأثيرات البيئية أو الاجتماعية والثقافية ذلك **أن جميع الأفراد لديهم القدرة على شكل من أشكال التعبير الإبداعي، ومع ذلك يتجلى الإبداع في طرق فريدة من نوعها بالنسبة لشخصية الفرد، وكذلك بما يتفق مع السياق الثقافي**، وقد يُدرس الإبداع من حيث الخصائص الشخصية، وطرق المعالجة، والنتائج الذاتية، والمنتجات الثقافية، مما يؤكد تأثير الثقافة على جميع جوانب الإبداع.

وفيما يلي سنحاول استعراض دراسة حالة **لأيقونة الإبداع المعماري** المعاصر **زَها حديد** ***Zaha Hadid*** (1950–2016) التي تجسّد **الإبداع كظاهرة متعددة الأبعاد نفسياً واجتماعياً**. ولدت في بغداد وتلقت تعليمها الأول في الرياضيات قبل أن تلتحق بـ ***Architectural Association*** في لندن، حيث جمعت بين تراثها الثقافي ومقاربتها التحليلية الصارمة والتجريب الشكلي الجريء لابتكار مبانٍ أعادت تعريف الهندسة التفكيكية. إن عمليتها الإبداعية ضمّت التفكير التحليلي العميق (متجذراً في خلفيتها الرياضية) مع رغبة في تحدي الأعراف السائدة في الشكل والوظيفة، فتوالدت هياكل سائرة وديناميكية تستثير الوجدان الفردي والفضاء العام. **نفسياً**، تعكس أعمالها انفتاحاً استثنائياً على الخبرة ومرونة معرفية وعزيمة صلبة في مقابل التحديات الجندرية والمهنية في بيئة

يهيمن عليها الرجال. **اجتماعياً**، استفادت من شبكات المموّلين والمؤسسات **(كجائزة بريتزكر)** والمتعاونين العالميين للحفاظ على رؤيتها ونشرها، مسلّطةً الضوء على أن الإبداع فعل جمعي مزروع في سياق ثقافي. وتجسّد مشاريعها الأيقونية – **مركز لندن للألعاب المائية، ومركز حيدر علييف، وأوبرا قوانغتشو**– إرثاً يستمر في إلهام أجيال جديدة من المعماريين حول العالم. بناءً على ما سبق **سنقوم بدراسة الحالة الإبداعية عند المهندسة زها حديد بالاعتماد على العناصر التحليلية التالية:**

1- الخلفية والسياق الاجتماعي: ولدت **زَها محمد حسين حديد اللهيبي** في 31 أكتوبر 1950 بالعاصمة العراقية بغداد ضمن عائلةٍ سياسيةٍ وثقافية، فقد كان والدها رجل أعمالٍ وناشطًا سياسياً، ما أكسبها وعياً مبكراً بتشابك الثقافة والسلطة. درست الرياضيات في الجامعة الأميركية في بيروت (1968–1972)، ثم التحقت بمدرسة **الجمعية المعمارية في لندن** وتخرجت فيها عام 1977، حيث تأثرت في بداياتها **بالسريالية (الفوق واقعية)** ومشتقاتها الهندسية. أسست مكتب ***Zaha Hadid Architects*** في عام 1980، وواجهت صعوبات في الحصول على مشاريع بناء ملموسة، فتوجهت إلى عرض رسوماتها المستقبلية في معارض دولية حتى حظيت بالاهتمام العالمي.

2- الأبعاد النفسية للإبداع: برزت لدى زها سمات نفسية عدة تعتبر من ركائز الإبداع منها **الانفتاح على الخبرة**، حيث سمح لها شغفها بالتجريب الفني برؤية الفضاءات كنظمٍ متدفقة، متجاوزةً الهندسة الإقليدية التقليدية. بالإضافة إلى المرونة المعرفية حيث مكنها خلفيتها الرياضية من إعادة تصور الأنظمة الهيكلية على أنها شبكات ديناميكية، لا ككتل ثابتة. وأخيراً، **الدافعية الذاتية والثقة بالنفس** من خلال **تحديها المتواصل للمعايير**

الذكورية والثقافية في مهنة يغلب عليها الرجال مما يدل على مستوى عال من الفاعلية الداخلية والدافعية الجوهرية.

3- الإبداع كفعل اجتماعي متجذر: تُظهر **مسيرة زها حديد** أن الإبداع فعل ينشأ في **شبكة علاقات اجتماعية وثقافية متشابكة** من خلال التركيز على **التراث الثقافي الهجين**، حيث استقت من تجربتها بين بغداد ولندن عناصر جمالية ومفاهيمية خلقت هوية معمارية فريدة تمزج بين الذائقة الشرق أوسطية والتقنيات الغربية. بالإضافة إلى حصولها على الاعتراف المؤسسي حيث حصدت **جائزة بريتزكر** ***Pritzker Prize*** عام 2004 والميدالية الذهبية من ***RIBA*** **(منظمة مهنية للمعماريين في المملكة المتحدة)** عام 2016، مما منحها شرعية دولية دعمت انتشار أفكارها وتصاميمها. وأخيراً قدرتها على التعاون المهني فبفضل شراكاتها مع مكاتب هندسية مثل ***Arup*** **البريطانية** وبلديات عالمية مكنت من تحويل تصاميمها الطموحة إلى واقع معماري ملموس.

4- عملية الإبداع والابتكار: اتبعت **زها** منهجية **إبداعية تقوم على التكامل بين النظرية والتجريب النمذجة المعمارية الحاسوبية**، حيث تبنّت مبكراً البرمجيات ثلاثية الأبعاد لاستكشاف أشكالٍ انسيابية ومعقدة لا يمكن تنفيذها يدوياً. بالإضافة إلى الرسم التخطيطي التعبيري لتحافظ على ممارسة الرسم الحر كأداة للتواصل الحي مع فريق العمل ولتوضيح الفكرة المكانية للمشروع. كما أنها وظّفت مواد مثل الخرسانة المسلحة المقوّاة بالألياف والفولاذ المنحني لإضفاء طابع ديناميكي بصري ووظيفي على مشاريعها **(كما في دار الأوبرا في قوانغتشو)**. ومن أهم ومن أهم أعمالها التي نُفذت **محطة إطفاء الحريق في ألمانيا، متحف الفن الحديث في مدينة سينسيناتي بأمريكا، ومركز الفنون الحديثة في روما، معرض منطقة العقل في الألفية بلندن، المركز الثقافي في أذربيجان وجسر**

الشـيخ زايد في دولة الإمارات العربية المتحدة، محطة لقطار الأنفاق في سـتراسـبورج، المركز العلمي في ولسبورج، محطة البواخر في سالرينو، مركز للتزحلق على الجليد في إنسبروك، ومبنى بي إم دبليو المركزي، ومركز حيدر علييف الثقافي في باكو.

5- الأثر والإرث المعماري (العمارة السـائلة): تركت **زها حديد** إرثاً معمارياً بارزاً يتميز **بلغة بصرية جديدة**، حيث قاد أسلوبها المعروف **(بالعمارة السائلة أي الانسيابية والقدرة على التدفق والحركة)** جيلاً جديداً من المعماريين إلى تبني مبادئ الانسـيابية والفضـاء المتحرك. بالإضـافة إلى قدرتها على تجاوز **الحواجز الجندرية** لكونها أول امرأة تحصـد **جائزة بريتزكر**، فتحت الطريق أمام النساء في حقل العمارة على الصـعيد العالمي. كما أن مبانيها في باكو وروما ولندن **جسّـدت روح التقاء التقاليد المحلية مع الابتكار العالمي، معززة دور العمارة كجسر للحوار الثقافي.**

خلاصة القول، تمثل **انثروبولوجيا الإبداع فتحاً معرفياً جديداً في مقاربة ظواهر الابتكار الإنساني**، إذ تؤطره ضمن سياقات ثقافية وتاريخية محددة، متجاوزة الفهم الفرداني والنفسي للإبداع. وقد أظهرت النظريات المفسرة أن الإبداع لا يُنتج بمعزل عن البنى الاجتماعية بل يتفاعل معها تفاعلاً جدلياً. وتشير التوجهات البحثية المعاصرة إلى أهمية استكشاف المزيد من البيئات الثقافية المتنوعة لفهم تنوع الإبداع البشري. **إن تعزيز هذا التخصص من شأنه أن يثري فهمنا للكيفية التي تتجلى بها الطاقات الخلّاقة في المجتمعات البشرية.**

فظاهرة **الإبداع جزء لا يتجزأ من السـياق**، إذ أنها تنطوي على شـخص أو مجموعة من الأشخاص الذين يعملون ضمن السياق، وهذا السياق لديه العديد من المستويات والأوجه، فمن الممكن التمييز بين الخصـائص الفيزيائية والاجتماعية للبيئة، حيث تقع ضـمن نطاق

البيئة الاجتماعية العديد من المستويات بدءاً من الأسرة والمدرسة، ومؤسسات العمل في المجتمع المحلي والبيئة الإقليمية إلى المستوى العالمي العابر للحدود الوطنية.

وفي النهاية يمكننا **اعتبار الإبداع ظاهرة ملزمة من الناحية الثقافية، وليست مجرد عملية عقلية، وطبقاً لهذا المنظور ينتج الإبداع من خلال النظم الاجتماعية، وتقييم الأفكار، وإنتاج الأفراد أو الجماعات.**

– المراجع المعتمدة:

– روبرت ج. ستيرنبرج: **المرجع في علم نفس الإبداع**، ترجمة: خالد عبد المحسن وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد: 997، ط1، 2005.

– قياتي عاشور: **العلاقة بين الثقافة والإبداع من منظور سوسيو – انثروبولوجي**، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد: 48، العدد: 04، ملحق: 01، عمان، 2021.

– عبد الستار إبراهيم: **الإبداع وقضاياه وتطبيقاته**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 2002.

– مجموعة من المؤلفين: **سيكولوجية الإبداع – أسس نظرية وتطبيقات مؤسسية**، تحرير: أيمن عامر، الإشراف العلمي: زين العابدين درويش، كلية التجارة، جامعة القاهرة، القاهرة، ط1، 2017.

– علي الحمادي: **صناعة الإبداع**، دار ابن الحزم، بيروت، ط1، 1999.

– إلهام عبد الرحمن: **تأثير الأنثروبولوجيا الرقمية في الإبداع التشاركي لإدارة العلامة التجارية عبر الأنترنت**، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، المجلد: 07، العدد: 04، إبريل 2022.

– حسام الدين فياض: **تقديم الذات الإنسانية عند إرفنج جوفمان (ما بين الفن المسرحي ونظام التفاعل الاجتماعي)** المقال: العشرون، من كتاب: **الإنسانية والمجتمع (ملامح الإنسانية في المجتمع المعاصر)**، سلسلة نحو علم اجتماع تنويري، الكتاب: السابع، دار الأكاديمية الحديثة، أنقرة، ط1، 2025.

– حسام الدين فياض: **العولمة الرمزية وثقافة التهجين الكوني (دور ثقافة اللوجو – الشعار– في تنميط الفكر الإنساني المعاصر)**، موقع الحوار المتمدن، العدد: 8322، 2025/04/24. https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=866097

– حسام الدين فياض: **طغيان عالم الأشياء في عصر ما بعد الإنسانية**، صحيفة المثقف، أقلام فكرية، تاريخ النشر 04 آذار– مارس 2024. http://almothaqaf.com/aqlam-3/974299

- علي محمود جاسم الصـراف: **العمارة الانسـيابية وتأثيرها على التصـميم الداخلي والأثاث في ظل التكنولوجيا الرقمية المتقدمة**، المجلة العلمية في بحوث العلوم والفنون النوعية، المجلد: 01، العدد: 12، الإسكندرية، ديسمبر 2019.

- Peter L. Berger & Thomas Luckmann: **The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge**, New York: Anchor Books, 1966.

- Thomas Hylland Eriksen: **Small Places, Large Issues: An Introduction to Social and Cultural Anthropology**, 4th ed, London: Pluto Press, 2015.

- Alfred Gell: **Art and Agency: An Anthropological Theory**, Oxford: Clarendon Press, 1998.

- Tim Ingold: Making: **Anthropology, Archaeology, Art and Architecture**, London: Routledge, 2013.

- Bruno Latour: **Reassembling the Social: An Introduction to Actor-Network-Theory**, Oxford: Oxford University Press, 2005.

- R. Keith Sawyer: **Explaining Creativity: The Science of Human Innovation**. 2nd ed. Oxford: Oxford University Press, 2012.

- Zaha Hadid: **Wikipedia**, Last modified April 2025. https://en.wikipedia.org/wiki/Zaha_Hadid.

- Zaha Hadid: **Biography, Buildings, Architecture, Death, & Facts**. Britannica.com. Accessed 2 May 2025. https://www.britannica.com/biography/Zaha-Hadid.

- About Zaha: **Zaha Hadid Foundation**, Accessed May 2, 2025. https://www.zhfoundation.com/about-zaha-hadid/.

- **The Abstractionist**, The New Yorker, December 21, 2009. https://www.newyorker.com/magazine/2009/12/21/the-abstractionist.

- **The Evolution of Zaha Hadid**, Architect, JSTOR Daily, June 2022. https://daily.jstor.org/the-evolution-of-zaha-hadid-architect/.

- **Zaha Hadid: The Architect-In-Chief**, Glamour.com. Accessed May 2, 2025. https://www.glamour.com/story/zaha-hadid.

- How Zaha Hadid First Rose to Fame, Time.com, January 1999. https://time.com/4277849/zaha-hadid-1999-profile/.

- **Remembering the Limitless Imagination of Zaha Hadid**, Vogue.com, April 2016. https://www.vogue.com/article/zaha-hadid-tribute.

*** د. حسام الدين فياض/ الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة/ قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب في جامعة ماردين- حلب سابقاً.**

باحث وأكاديمي في العلوم الثقافية واللغويات واللسانيات الاجتماعية. له عدد من المؤلفات السوسيولوجية؛ (سلسلة نحو علم اجتماع تنويري)، بالإضافة إلى العديد من الأبحاث العلمية والمقالات الفكرية التي تجمع بين النظرية السوسيولوجية والفكر الاجتماعي والثقافي النقدي المعاصر.